أثر الأسس الفكرية للمذهب الأشعري في الدعوة الإسلامية المعاصرة

بسيوني محمد نحيلة *

ملخص

يحاول الباحث في هذه الدراسة أن يؤكد ضرورة اهتمام الدعوة المعاصرة بمذاهب الإسلام الفكرية في مرحلة إعداد الدعاة وتبليغيها، وذلك من خلال بيان أثر المذهب الأشعري في تناول قضايا العقيدة وموضوعاتها على الدعوة في مضمونها، والدعاة في أدائهم، والمدعوين في استجابتهم من خلال تطورات العصر ومستجداته. واتباعاً للمنهج الاستنباطي التحليلي المرتبط ببعض الإسقاطات الدعوية المعاصرة توصل البحث إلى عدة نتائج من أهمها: أن كل مذاهب الإسلام الفكرية والمعتمدة على قاعدة القرآن والسنة تعد من مصادر الدعوة في مرحلة التأهيل والإعداد، كما هو الحال في مرحلة التنفيذ والتطبيق، وأكدت على ضرورة الإحاطة بمذهب الأشاعرة ودراسة منهجهم في الدعوة لتمتعه ببعض الخصائص والميزات التي تناسب عرض الدعوة وتبليغها في العصر الحاضر، وخاصة في المجتمعات الغربية التي تتمتع بميزات العلم والتقدم والتفكير والتحليل والمناقشة والحوار كوسيلة للاقتناع وطريقة للتصديق.

الكلمات الدالة: المذهب الأشعري، الدعوة الإسلامية، الأسس الفكرية، العقيدة، العصر الحاضر.

المقدمـة

يعد الفكر الإسلامي –بكل أطيافه وتوجهاته القديمة والمعاصرة– من أبرز المؤثرات على حركة الدعوة الإسلامية ومسيرتها في كل زمان ومكان. يدرك هذه الحقيقة ويثبتها كل منشغل بأمر الدعوة في جانبيها: النظري والتطبيقي. وأعني بمسيرة الدعوة وحركتها: القدرة والفاعلية المستمرة في هداية الباحثين عن الدعوة، والتواصل مع الجاهلين بأمرها وحقيقتها، وإقناع المجادلين في شأنها، وإفحام المعارضين الحاقدين عليها، وتثبيت وتقوية المنضمين تحت لوائها.

والأكاديميون المتخصصون في دراسات الدعوة معنيون بالبحث والتنقيب عن أيسر الوسائل وأنجعها في تقديم مبادئ الدعوة وعرضها وفي التعريف بطبيعتها وخصائصها في وسط جماهير المدعوين على اختلاف طبائعهم وخلفياتهم وبيئاتهم. ويكاد هذا الأمر أن يكون من الضرورات الدعوية في العصر الحاضر الذي ساد فيه الفكر والمفكرون، وأصبح الحوار والنقاش والمقارنات ميزة لمرحلته، وطبيعة لأفراده، وخاصة، في علم الأديان، وساحة الحوار العقدي في الجامعات والمنتديات العالمية والمحلية.

ويرى الباحث أن دراسة المذاهب الفكرية الإسلامية –وخاصة العقدية منها– والتعرف على أسسها وركائزها وأدبها تفيد الدعوة المعاصرة ودعاتها كثيراً في صياغة المضمون، واختيار أهم الوسائل المناسبة لتقديم الدعوة وعرضها على المدعوين بما يناسب المستجدات العصرية والتطورات المتلاحقة.

أهمية الدراسة:

مما هو معلوم –بالمشاهدة والتجربة بين الممارسين للدعوة العملية في وسط غير المسلمين– أن كثيراً من المدعوين، قد يُصد عن الدعوة، أو يفر من دعاتها –فقط– لأنه استمع إلى حديث من أحد الدعاة لم يُوفق في صياغة فكرته وحسن عرضها بما يناسب الحال والمكان والزمان، أو لتناوله قضية لم يملك وسائل الإقناع وأدلة البيان المناسبة لتوضيح غموضها وتجلية الشك والريب عنها، أو لتقديم أمر كان من الحكمة تأخيره، أو لموقف لم تسعفه مهاراته لتوظيفه وحسن استغلاله، أو لسؤال مثير لم يستطع أن يكبح عنده انفعالاته وغضبه، أو لأَنَفة منعته أن يحيل الأمر إلى أهل الذكر والبيان فيه؛ فتصدر –فيما لا ينبغي التصدر فيه– بالهوى أو التخمين، فأضر من حيث أراد أن ينفع. ولذا بات من غير المعقول، أن تكون حركة الدعوة –في هذا

* جامعة قطر، قطر. تاريخ استلام البحث 2016/6/15، وتاريخ قبوله 2016/11/25.

© 2018 عمادة البحث العلمي / الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

العصر – عشوائية عفوية، تدفعها العاطفة، تارة، وردود الأفعال والانفعالات تارة أخرى، أو يتصدر لها من لا يحمل عن الإسلام إلا وجهاً واحداً ورثه عن بيئته أو مجتمعه، وظن أنه هو الأمر الذي يجب نقله وتقديم الإسلام من خلاله، دون مراعاة للظروف والأحوال. فهؤلاء –رغم حسن النوايا– قد يضرون الدعوة في مسيرتها ويؤخرون تقدمها قروناً.

وأول الأمور التي يجب أن تتقارب فيها كلمة الدعاة والباحثين في علم الدعوة: هو ما يتعلق بأمور العقيدة ومفرداتها، من ناحية: صياغتها وعرضها بما يناسب العصر، ويحفظ الأصالة والثوابت، ويضمن سلامة وصولها إلى المدعوين في صورة مشوقة مقنعة قابلة للتطبيق والممارسة، وذلك حتى تظهر عظمة الإسلام وصلاحيته لكل زمان ومكان وإنسان. وترجع أهمية توحيد صياغة أمور العقيدة وطرق عرضها في الدعوة المعاصرة إلى أمور، أهمها ما يأتي:

1. العقيدة هي باب الدعوة ومفتاحها؛ فمن خلالها، يرى المدعو رسالة الإسلام، في أصولها وجوهرها، ويدرك الفرق الأساسي بين أسس وركائز دين عالمي خالد، حُفظ من عبث البشر، وأديان طالتها يد التحريف ونوازع الهوى والزيغ.

2. تصاغ شخصية الداعية من خلال قراءاته ودراساته، فالانفتاح المنضبط على أسس الفكر الإسلامي يساعد في بناء شخصية دعوية مرنة، تتمتع بقدرة ذهنية لامعة ونفسية سلسة، تعين على توصيل رسالتها في محيط البلاغ والبيان بواقعية وملائمة.

3. لا يخفى تعدد المذاهب والفرق التي تناولت العقيدة الإسلامية، شرحاً وعرضاً في القديم والحديث، كما لا يخفى أن لكل مذهب أتباعاً يناصرونه، ويعملون على نشره. وهذا إن كان مقبولاً في مجال التأليف أو التنظير في محيط أتباع الإسلام، فما ينبغي أن يكون بين الدعاة في مجال تقديم الإسلام وتمثيل دعوته والمحاورة من أجله مع الجاهلين لحقيقته ومقدماته وتاريخه الفكري.

4. تَرَصُّد كثيرين من المعادين للإسلام لأي خلل في أصوله العقدية وأركانها، أو اضطراب في عرضها وتبليغها؛ وذلك حتى يلحقوها بالعقائد التي فسدت أصولها، وانهدمت ثوابتها؛ يُلزم الدعاة أن يكونوا على حذر في تقديم ما قد يعطي فرصة لجهولٍ أو معادٍ أن يشوه عقيدة الإسلام، أو يثير الشبهات حولها.

ولهذه الأسباب وغيرها وجب على المنشغلين بأمر الدعوة –أكاديمياً وعملياً– أن يبحثوا عن أيسر المذاهب العقدية وأكثرها مناسبة في إعداد الدعاة وتقديم الدعوة بما يعين في تحقيق الأهداف، وجذب المدعوين، ومجابهة المعاندين، وذلك في إطار حفظ الثوابت والتمسك بالأصول، والبعد عن التعصب أو التسفيه.

أهداف الدراسة:

- إمداد الدعاة ببعض المعينات الفكرية والقواعد الدعوية التي تدعم العقل بالمادة والحجج المقنعة، بما يسهل مهمة الوصول إلى عقول المدعوين وقلوبهم.
- دفع الداعية المعاصر إلى ممارسة الانفتاح والمرونة العقلية والروحانية على تراث الإسلام الفكري، واختيار ما يناسب مدعويه، فيما لا يتعارض مع أصول الدعوة وثوابتها.
- إثبات بعض الجوانب العملية المعتبرة في الدعوة المعاصرة من خلال بعض المكونات الفكرية للمدرسة الأشعرية.
- التأكيد على أن كل مدارس الإسلام الفكرية المعتمدة على قاعدة القرآن والسنة تعد من مصادر الدعوة في مرحلة تأهيل الدعاة وإعدادهم، كما هو الحال في مرحلة التبليغ والبيان.
- بيان أهمية دراسة الدعاة المعاصرين لمذهب الأشاعرة والإحاطة ببعض مناهجهم وطرقهم في الاستدلال والحوار؛ فذلك مما يعين على نشر الدعوة وقبولها في ساحة المثقفين من غير المسلمين وخاصة في بلاد الغرب.

منهجية الدراسة:

تعتمد الدراسة على المنهج الاستنباطي التحليلي، المبني على البحث والمناقشة، والتحليل النقدي، والإسقاط العملي الذي ينتهي باستخلاص القواعد والمعاني ذات الصلة بموضوع البحث، وذلك من خلال جمع المادة العلمية والأدلة من المصادر الأصيلة والحديثة، ثم إسقاطها على موضوع الدراسة مع ضرب بعض الأمثلة المعاصرة لتقوية المعنى والاستدلال له.

الدراسات السابقة:

على الرغم من كثرة المؤلفات القديمة والحديثة عن الأشاعرة ومذهبهم وعن الدعوة وطرقها ومناهجها المعاصرة والقديمة، إلا أن البحث الذي بين أيدينا يعد من الموضوعات الجديدة في عنوانه وهدفه وطريقة تناوله، إذ أنه محاولة لاقتباس بعض الأسس التي

يرى الباحث من خلالها أن المدرسة الأشعرية قد تكون أكثر المدارس وضوحاً وتيسيراً وملاءمةً في تقديم الدعوة المعاصرة وتحقيق مقاصدها في العصر الحاضر. ولهذا يعتقد الباحث أن الموضوع لم يسبق –من ناحية الهدف والعرض– في الساحة الأكاديمية بين طلاب علم الدعوة والفكر والعقيدة. ولذا فإني أرجو أن يكون فيه إضافة أكاديمية تعين المختصين في الدعوة الأكاديمية والتطبيقية على التوسع في الدراسات التي تربط بين تراثنا الفكري والممارسات المعاصرة تطويراً لأداء الدعوة في الوسائل والأساليب وتجذيراً لأصولها ودعائمها، بما يخدم الأداء الدعوي المعاصر ويعمل استمرارية تطويره.

خطة الدراسة:

تأتي خطة الدراسة في مقدمة، وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة.

المقدمة: حول موضوع البحث، وأهميته، وأهدافه، ومنهجيته، وخطته.

التمهيد: حول بيان مفردات عنوان البحث وتحرير ألفاظه.

المبحث الأول: أثر الأسس الفكرية للمذهب الأشعري في الداعية

المبحث الثاني: أثر الأسس الفكرية للمذهب الأشعري في مضمون رسالة الدعوة

المبحث الثالث: أثر الأسس الفكرية للمذهب الأشعري في المدعو

الخاتمة: أهم التوصيات والنتائج

التمهيد:

يركز هذا المحور على بيان مفردات العنوان، وتحرير ألفاظه؛ لتوحيد المفاهيم، والاتفاق على المعنى المراد من العنوان في الدراسة؛ بما يعين على وضوح الفكرة، والوصول إلى المقصود في ذهن القارئ. ولما كان عنوان البحث:(أثر الأسس الفكرية للمذهب الأشعري في الدعوة الإسلامية المعاصرة) اشتمل هذا المبحث على النقاط الآتية:

الأثر[1]: يأتي بمعنى العلامة، والمقصود به: بقية ما يُرى من الشيء. ويطلق الأثر أيضا: على لمعان السيف وبريقه، وعلى مكان الجرح، بعد مداواته. تقول: أثّر في الشيء، أي ترك فيه أثراً. ومنه التأثير، أي إبقاء الأثر في الشيء. والمقصود بالأثر، في هذه الدراسة: هو ما يتركه المذهب الأشعري من علامات وبصمات يمكن أن تتجلى في أركان الدعوة المعاصرة(الداعية–المدعو–مضمون الدعوة)، وتعود بمردود فكري ونتيجة عملية في ساحة إعداد الدعاة وبيئة دعوتهم.

الأسس[2]: مفردها، أساس، وهو أصل كل شيء ومبتدؤه. جاء في المعجم الوسيط[3]: الأساس: هو قاعدة البناء التي يقام عليها، وهو أصل كل شيء ومبدؤه. ومنه: أساس الفكرة، وأساس البحث. بمعنى القواعد والثوابت التي انبثقت منها الفكرة، وبنيت عليها.

الفكرية: نسبة إلى الفكر. وجمعه: أفكار، كفكرة. ومعنى الفكر[4]: إعمال النظر في الشيء، أو "إعمال العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة مجهول"[5]. وفكّر في الأمر فكراً، أعمل العقل فيه، ورتب بعض ما يعلم؛ ليصل به إلى مجهول. وهذا المعنى، هو ما يفهم من قوله تعالى:﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ (الجاثية:13)وقوله سبحانه: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ (الحشر:21). فهذا حثّ علي إعمال العقل باستخدام البديهيات المُسلّم بها عند العقلاء؛ من أجل الوصول إلى الحقائق المستورة خلف الآيات الكونية المرئية، والأمثال المسموعة. وبالنظر إلى هذا التعريف للفكر، ندرك أنه لا يتحقق إلا بثلاثة عناصر أساسية. أولها– العقل المفكر(الأداة). وثانيها– الحقيقة المعلومة(المرجعية). وثالثها– المعرفة المنشودة(الفكر) وهو النتاج المرتقب من هذه العملية. ومن خلال هذه العناصر الثلاثة، يتشكل الفكر، وتظهر معالمه، ويتميز عن غيره. فإن كانت أداة الفكر(العقل): إسلامية الاعتقاد، ربانية الميول والقناعات، ومرجعيته المعتمدة: القرآن، والسنة (الحقيقة المعلومة)، كان المنتج المتوقع، والمعرفة المنشودة (الفكر) إسلامياً صميماً[6].

وبناءً على هذا، كان مفهوم الأسس الفكرية للمذهب الأشعري التي نقصدها في بحثنا: هو ما كان متعلقا بالفكرة ومضمونها، وأصحابها ومؤسسيها، ووسائل وطرق إنتاجها.

المذهب الأشعري[7]: نسبة إلي أبي الحسن، علي بن إسماعيل، بن إسحاق، بن سالم، بن أبي بردة، بن أبي موسى الأشعري، الصحابي(رضي الله عنه).ولد بالبصرة سنة260هـ. وكان قوي الذكاء، ثاقب الفهم. بدأ أو لأمر على مذهب المعتزلة، ثم ترك الاعتزال، وانبرى يرد عليهم، ويظهر عوارهم. ثم تحول بعد ذلك إلى المذهب الجديد الذي خطه لنفسه، والذي عرف فيما بعد بمذهب الأشاعرة، أو المذهب الأشعري، ثم انتهى في آخر حياته، واستقر على مذهب أهل السنة والجماعة. توفي رحمه الله سنة324هـ ببغداد.

الدعوة[8]: للعلماء والمتخصصين في علم الدعوة تعريفات كثيرة ومتنوعة لمصطلح الدعوة. منها: ما يؤكد على واجب البلاغ ونشر المبادئ. ومنها: ما يحصر الدعوة في عملية التوجيه والتعليم...وغيرها. والذي أميل إليه، وأجده متماشياً مع مفهوم الدعوة في القرآن، وتطبيقاتها العملية في حياة النبي ﷺ، هو أن يكون المقصود بالدعوة الإسلامية: هو نشر المبادئ بين الناس، وتربيتهم عليها، وتأهيلهم لحملها والدفاع عنها. فهذا المفهوم، يجعل الدعوة أكثر شمولاً، وأعمق في المسؤولية، وأقوى في الأثر؛ مما يتطلب إعداداً ضخماً، متجدداً للدعوة، ولأفرادها الذين يحملون لواءها. ويكاد هذا المفهوم للدعوة، أن يكون أكثر واقعية، عندما توصف الدعوة (بالمعاصرة)، التي تعني: مراعاة الزمان والمكان الذي تقدم فيه الدعوة، وهذا يقتضي: الإحاطة بالظروف والمستجدات، والتحديات والعقبات، وكذلك القدرة على التجاوب والتفاعل معها.

ومما سبق، يتضح، أن المقصود بالدراسة: هو إظهار أثر المذهب الأشعري، المتمثل في: مؤسِّسه، وطرق وأدوات فكره، ونظرياته المتعلقة بتناول موضوع العقيدة على الدعوة الإسلامية المعاصرة في جميع أركانها. وهذا ما سنحاول إبرازه من خلال المحاور الآتية، إن شاء الله.

المبحث الأول

أثر الأسس الفكرية للمذهب الأشعري في الداعية

الداعية: هو المعني بتبليغ الدعوة، عن طريق نشر المبادئ بين المدعوين، على اختلاف أجناسهم، وتنوع ثقافتهم. وهو المنوط به –أيضا– تربية المنتسبين للدعوة، وإعدادهم لحمل رسالتها، والذود عنها؛ وعلى هذا، فهو المحرك الأساس لعملية الدعوة، يتعرف الناس من خلاله على النموذج العملي لمضمون الرسالة التي يدعو إليها. ولهذا، وجب التنبيه على أهمية مرحلة إعداده والتركيز على برامج تكوينه وخطوات تأهيله للقيام بهذا الواجب الكبير.

ومن أكثر الأمور التي تؤثر في تشكيل شخصية الداعية، وتكوين عقليته: قضايا الفكر الإسلامي، وخاصة، مذاهب علماء الإسلام في تناول مسائل العقيدة الإسلامية و طرق عرضها.

والمتتبع لتاريخ المذهب الأشعري ومراحل تطوره، في رجالاته، ونظرياته، وآلياته الفكرية، يدرك أبعاد التكوين الفكري والأثر التربوي الذي يمكن أن يعود على الدعاة المعاصرين بفوائد متعددة. أولاً– في بناء عقليتهم، فهماً وتدبراً، واتساعاً ووعياً. وثانياً– في صقل شخصيتهم، حركة ومرونة، وتفاعلاً وتجاوباً. ولعل هذا هو أحد الأسباب في أن كثيراً من خريجي المعاهد والكليات[9] التي تعتمد المذهب الأشعري ضمن مناهجها، يتميزون في المحافل العلمية، والبيئات الأكاديمية، والمؤسسات الفكرية، بهدوء الفكر، وعمق التأثير، وسرعة الانتشار؛ مما يخدم الدعوة على جميع مستوياتها.

وفي هذا المحور، نحاول أن نبرز الأثر الذي يمكن أن يظهر في الداعية المعاصر نتيجة تدارس بعض أسس المذهب الأشعري والتعرف على أئمته، ومدى تأثير ذلك على أدائهم الدعوي في العصر الحاضر. ولبيان ذلك نعرض النقاط الآتية:

أولاً– الاعتدال والوسطية في تناول القضايا وعرضها

يعد هذا الأثر من أول ما يمكن أن يُميز به المذهب الأشعري وأتباعه؛ ذلك أنهم اتخذوا بحكمتهم الواضحة، وحججهم المقنعة الطريق الوسط في إثبات أمور العقيدة، فلم يقعوا في إفراط المعتزلة، ولا تفريط المجسمة والمشبهة، إنما أخذوا بالحسنة التي بينهما. يقول الحافظ بن عساكر في وصف مدرستهم: "فمذهبهم أوسط المذاهب، ومشربهم أعذب المشارب، ومنصبهم أكرم المناصب، ورتبتهم أعظم المراتب"[10].ويلخص مذهبهم–أيضاً– محمد عبده بقوله: "لقد سلك الأشعري مسلكه الوسطي المعروف بين موقف السلف وتطرف من خالفهم، وأخذ يقرر العقائد على أصول النظر"[11]. ومن أمثلة هذا الاعتدال والتوسط في تناول القضايا عند الأشاعرة: ما وصلوا إليه من فهم وسطي في قضية خلق القرآن الكريم، هذه القضية التي أحدثت فتنة كبيرة في صفوف الأمة، وقسمتها إلى فرق. فإذا بأبي الحسن الأشعري، ينبري للتأكيد بالأدلة النقلية الواضحة على أن كلام الله غير مخلوق، ثم يبدأ في مناقشة المخالفين لهذه الحقيقة، بنظرة وسطية معتدلة، قابلة للتعقل والفهم، فيقول للفريق الأول:" أنتم على حق، إذا كنتم تقصدون بخلق القرآن: اللفظ والتلاوة والرسم. وليس لكم مجال أن تنفوا الصفة القديمة القائمة به تعالى، وهو الكلام من غير لفظ، ولا حرف، ولا صوت. وقال للفريق الثاني: أنتم مصيبون، إذا كان مقصودكم "بالقديم": الصفة القائمة بذات الباري–يعني الكلام النفسي– وليس لكم مجال أن تنكروا حدوث لفظ اللافظ، وتلاوة القارئ"[12]. ومن أمثلة هذا الاعتدال، أيضا: ما ذكره ابن عساكر عن الأشعري في قضية موقف العبد من أعماله وكسبه، يقول: "إنّه–أي الأشعري– نظر في كتب المعتزلة، والجهمية، والرافضة، فسلك طريقة بينها. قال جهم بن صفوان: العبد لا يقدر على إحداث شيء، ولا على كسب شيء. وقالت المعتزلة: هو قادر على الإحداث والكسب معاً. فسلك–

يقصد الأشعري– طريقة بينهما، فقال: العبد لا يقدر على الإحداث، ويقدر على الكسب. فنفى قدرة الإحداث، وأثبت قدرة الكسب"[13]. وبهذا يكون قد اختار المنهج الوسط الذي يجمع أكثر ما يفرق، ويقوي الأمة في وقت ضعفها، ويحصنها أثناء عنفوانها.

ولا يخفى أثر ذلك المنهج الوسطي على الداعية المعاصر عند مطالعة هذه الآراء الوسطية، والوقوف على نماذج مفكريها، دراسة وفهماً؛ فبجانب ما يكتسبه من ميزة الاعتدال والتوسط في تناول القضايا العقدية وطرق عرضها، نجده يمتلك قدرة على التوازن في الحركة والتعامل مع المدعوين، وخاصة، في الأمور العامة، والمواقف العملية، والحوارات القولية وردود الأفعال المتنوعة التي يرقبها المدعو بنظرات دقيقة ووعي ثاقب. فالمعروف أن المدعوين –فطرة وواقعاً– يتجنبون وينفرون ممن عُرف عنه التشدد أو التسيب، ويحذّر بعضهم بعضاً من الجلوس أو السماع لمن أُشيع عنه أنه من أهل أحد الطرفين، وليس من أهل الوسط. فالوسط دائماً هو نقطة التجمع، وعليه يكون الارتكاز، وبه تُوزن الأطراف، ومن خلاله تفتح مجالات للعودة والمراجعة، وفيه تقل نسبة الخسائر والتساقط. والدعاة المعاصرون أحوج ما يكون إلى التشبث بالوسط والتمركز حوله عن طريق الاعتدال في الأداء العملي والتناول الفكري. فالتجميع والتأثير، والحث والإمالة نحو الهداية، تعد من أهم مظاهر وثمرات الأفكار المعتدلة بنور الحكمة، فمن خلالها، تطمئن عقول المدعوين، وتنجذب قلوبهم. ويمكن أن ندرك أهمية هذا الأثر في حركة الدعاة المعاصرين من خلال النقاط الآتية:

- استهداف الحملات الإعلامية المعاصرة الغربية والعلمانية لدعاة الإسلام ومحاولة وصفهم بالغلو والتشدد من أجل صرف الناس عنهم.
- شيوع كثير من الأفكار المتطرفة في محيط الشباب عبر الفضائيات... وغيرها يقتضي من الدعاة فطنة ودقة في عرض رسالة الإسلام وإظهار وسطيته واعتداله برسالة وسطية تجمع ولا تفرق.
- المستجدات المعاصرة والتغيرات المتسارعة على الساحة العالمية والمحلية تقتضي من الدعاة مرونة وواقعية في الخطاب والتعامل في إطار حفظ الثوابت والتشبث بالأصول.

ثانيا– القدرة على الحوار وقبول الآخر

الداعية الناجح: هو الذي يمتلك القدرة الطبيعية، والمهارة التلقائية في قبول الآخر، والاستماع له، والمحاورة معه. إذ لا يعقل بحال أن تكون الدعوة حديثاً موجهاً من طرف واحد، على اعتبار أنه هو الحق الأوحد، وما دونه باطل، فهذا نهج ما أريكم إلا ما أرى الذي ترفضه طبائع البشر، وتأباه العقول المفكرة. أما الدعوة الإسلامية فقاعدتها الذهبية هي قوله تعالى:﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾(سبأ:24).

ما الذي يمتلكه الداعي في عين مدعوه المنكر له؟ إلا الاحترام والتقدير المتبادل، والفرصة المتساوية في الحوار والنقاش، الذي إن تم –بتلقائية وإخلاص– استقبلته الآذان بإنصات، وأدارته العقول بتؤدة وإنصاف؛ مما يسهل سبيل الإقناع، ويزيد من فرصة قبول الحق.

وإن ما بذله الأشاعرة من أوقات وجهود، في مجالسة المعارضين لأفكارهم، وما أنتجوه من براهين وحجج في محاورة المجادلين يعد دليلاً واضحاً على الاعتراف بالفكر الآخر، ومحاولةً صادقة للوصول إلى الآخر عبر الحجاج والحوار. يلمس ذلك كل من قرأ تراث الأشاعرة الفكري[14]الذي ضم كثيراً من المناظرات والحوارات العلمية الدقيقة، والصولات والجولات الساخنة مع الكلاميين والفلاسفة والدهريين والملاحدة والزنادقة... وغيرهم. ولقد تم ذلك في مجالس ولقاءات مطولة، ومتكررة؛ حتى وجدت آذاناً سمعتها، وعقولاً تدبرتها، وقلوباً ارتضتها في كثير من الأحيان. ويلاحظ براعة الأشاعرة في استخدام كثير من أدلة وطرق المناطقة والفلاسفة في الجدل والمحاورة، مما يدل على معرفتهم بطرق الآخر معرفة إحاطة واستيعاب، ولقد أهلهم ذلك لقوة الحوار، والإقناع في المناظرة، والإفحام في الحجاج.

ورغم المآخذ التي أخذت عليهم في كثرة محاوراتهم على طريقة الكلاميين والفلاسفة، إلا أن الباحث يرى أن دعاة العصر الحاضر، وخاصة، الذين يواجهون جبهات الإلحاد والمعادين في الغرب، في حاجة إلى قدر مناسب من هذه المهارات في مخاطبة الآخر ومحاورته، وذلك عن طريق معرفة ما لديه من وسائل وأدوات في المخاطبة والمناقشة. والداعية الذي لا يتحصن بمثل هذه الأدوات الفكرية والمهارات الحوارية، سيكون محدود الأثر في دعوته، قليل النتاج في حركته في هذا العصر الذي أصبح الحوار فيه مفتاح الوصول إلى القلوب في كثير من القضايا.

ومع أهمية وضرورة الحوار والانفتاح في مقابلة الفكر أثناء الدعوة، يجب التحذير من المبالغة في الاعتماد الكلي على ذلك؛ فالاستغراق في المجادلة والتفلسف وطرق الكلاميين لا يقل في سلبيته عن الإعراض الكلي عنه، ومن هنا كان التوسط في الأمر

هو سر الإيجابية فيه. وتظهر أهمية هذا الأثر في الدعاة المعاصرين من خلال النقاط الآتية:

- الحوار والنقاش المتبادل هو شعار العصر بين المثقفين والعقلاء، والداعية لا يمكن أن يكون منعزلا عن هذا الواقع فأساس مهنته التواصل والتفاعل.
- أثبتت التجارب أن الذي لا يستعد لسماع الآخر والتجاوب معه لا يمكن أن يُسمع لدعوته أو يُتفاعل مع أقواله ورسالته، فالسماع والتجاوب يكون بالمِثْل في القدر والوقت.
- دفعت بعض الأحداث المعاصرة كثيراً من شباب المسلمين لتبني بعض الأفكار المتشددة والآراء الجامدة في التعامل الداخلي والخارجي، وتحلي الدعاة المعاصرين بقدرات الحوار وقبول الآخر يساعد على ضبط المسارات الفكرية لدى الشباب بما يعين على توجيه القدرات والحفظ من الانحراف.

ثالثا- القدرات العقلية والمجادلة المنطقية

هذا الملمح من ضرورات الملمح السابق، إذ أن محاورة الآخر -وخاصة في محيط الدعوة المعاصرة- لابد أن تكون عن مُكنة عقلية وحنكة منطقية، حتى تحقق المحاورة مرماها، وتُصِب المجادلة هدفها. وهذا من أبرز ما برع فيه الأشاعرة. فكأنهم جاءوا على قدر في وقت ساد فيه الكلام، والجدال، والتفلسف، والتشدق؛ فكان للمبتدعين والمضلين -يومها- رؤوس رفعت، ورايات رفرفت، فجاء الأشعري، بالحجة البالغة، والصرامة في البيان، والحسم في القضية؛ فعرف "بناصر السنة". قال العلماء: "إن أهل البدع قبل الإمام أبي الحسن، قد رفعوا رؤوسهم، فلما ظهر عليهم-رحمه الله- حجزهم في أقماع السمسم"[15]. قال السبكي والزبيدي عنه: "هو مقرر لمذاهب السلف، مناضل عما كانت عليه صحابة الرسول ﷺ"[16].

ومن أشهر مناظرات الأشاعرة: ما تم بين أبي الحسن الأشعري وأستاذه الجبائي[17] في أسماء الله تعالى ومسألة رؤية الله عز وجل. فقد فاجأ الأشعري الجميع بقوة الحجة، واستحضار الدليل، وسرعة البديهة؛ مما جعل هذه المناظرة سبباً في ظهوره، وظهور مذهب أهل السنة في زمانه إلى اليوم. وبمثل هذا النوع من المناظرات والمحاورات استطاع الأشاعرة أن يبطلوا مقالات القدرية والكرامية، وأن يفضحوا عوار الجهمية والجبرية، وأن يسكتوا المعتزلة والفلاسفة، وأن يخرصوا كل متجرئ على السنة وأهلها.

ولله در دعاة اليوم، وهم يواجهون حملات التشكيك المسعورة، وأفكار الملاحدة والعلمانيين المأجورة، في عالم أُطلقت فيه المحظورات والمضلات بدعوى الحريات، واتسعت فيه الفضائيات بلا حدود ولا زواجر. والداعية الذي يُزج به في هذه المجتمعات الهائجة بهذه الأعاصير الفكرية، من أجل مهمة البلاغ والبيان، ودحض الشبهات، ورد الافتراءات، دون أن يكون محصناً بسند متين من مهارات المحاورة العقلية والمناورة الذكية، مع التمكن من الأدلة العقلية والبراهين المنطقية الدامغة، ربما يكون أول صريع على الطريق، فلا ظهراً أبقى، ولا طريقاً قطع. ومن معالجات ذلك: أن يرتبط الدعاة بتراث الأمة الفكري، وأن يكونوا على دراية بخبرات أعلام الأمة السابقين والمعاصرين ممن انتهجوا طرق المحاورة، وبرعوا في أدوات المناظرة؛ فكسروا العواصف الفكرية الثائرة، وأحبطوا الأفكار العاتية الجانحة.

ومن أهم ما يمكن الاعتماد عليه في هذ الجانب: تراث المدرسة الأشعرية، الذي يجد الداعية من خلال مراجعته المصنفات المتخصصة في المناظرات العقدية. من ذلك كتاب: "عيون المناظرات" لأبي علي عمر السكوني، فقد جمع فيه مائة وستين مناظرة في علم التوحيد. وكتاب "اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع" للإمام الأشعري ...وغيرهما.

ويجب أن نشير إلى أنه برغم ما يمكن أن يحصل عليه الداعية المعاصر من مهارات وفنون في المحاورة والمناظرة العملية من خلال دراسة حياة مفكري الأمة وتراثهم الفكري، إلا أنه لا يمكن الاكتفاء بذلك دون الربط بينها وبين فنون المحاورة والمناظرة الحديثة ووسائلهما. فتمكن الداعية من الأمرين معاً، أعني: الجديد المؤثر، والقديم المؤصل، يؤهل محاوراته ومناظراته أن تكون واقعية معاصرة، تتميز بالتي هي أحسن في طرق عرضها، وجمال تقديمها. وتظهر أهمية هذا الأثر في الدعاة المعاصرين من خلال النقاط الآتية:

- يعد العصر الحاضر من أكثر العصور انتفاعاً بمنتجات العقل في جانب خدمة الفكر البشري، والدعاة مطالبون أن يسلكوا إلى مدعويهم وسائل العصر بشرط عدم معارضتها لثوابت الشرع.
- ضرورة تقديم الإسلام في إطار الدعوة إلى التفكر والتدبر بإعمال العقل وتفعيله وصولاً إلى الاقتناع والإيمان.
- رد الشبهات المعاصرة التي تثار حول الإسلام بطريقة عملية، وخاصة التي تدعي تبنيه وسيلة الإكراه في الاعتقاد والإيمان بالله.

رابعا- الاعتراف بالخطأ وتطوير الذات

مما يرفع شأن الداعية بين مدعويه، أن يقر بالخطأ، وأن يقوم بتصحيحه، ففي ذلك دليل على صفاء النفس وتجردها للحق. ولاشك، أن الارتقاء في الدين، والتطور في الأداء الدعوي، مرهون بملكة التقييم الصادق للذات، والتطوير الشامل المستمر، فمن خلالهما يدرك الإنسان أخطاءه؛ فيبادر إلى تقويمها وتصحيحها قبل استفحالها. ولطبيعة حركة الدعوة المتواصلة، يجد الداعية نفسه في تجارب متلاحقة، ومواقف متعاقبة، تحتاج إلى مراجعات وتقييمات فورية، وهذا يتطلب من الداعية التعود والتمرس على وقفات صريحة مع النفس للمراجعة والتقويم بصورة تلقائية دائمة، والأمر إن لم يتحقق بشكل دوري مستمر؛ قد يكون سبباً لتعرض الداعية –مع مرور الأيام– للنقد والاتهام من حيث لا يحتسب؛ مما قد يصرفه عن الدعوة، أو يشغله عن القيام الأمثل بحقها.

وإن مما يحسب للأشاعرة في مذهبهم، ويرفع من قدرهم في عين المنصفين من ناقديهم، ويعزز من مصداقيتهم في عين أتباعهم، المراجعات الجريئة لآرائهم، والاعتراف الصادق بالأخطاء. مثال ذلك: موقف الأشعري في قصة تحوله عن الاعتزال، فقد روي أنه أعلن على ملأ من أتباعه ومعارضيه، أنه قد اعتزل ما سبق من هفوات فكرية. تروي الرواية عنه أنه قال: "وقع في صدري في بعض الليالي شيء مما كنت فيه من العقائد، فقمت وصليت ركعتين، وسألت الله تعالى أن يهديني الطريق المستقيم، ونمت، فرأيت رسول اللهﷺ في المنام، فشكوت إليه بعض ما بي من الأمر، فقال لي رسول الله ﷺ: "عليك بسنتي" فانتبهت! وعارضت مسائل الكلام بما وجدت في القرآن والأخبار فأثبته، ونبذت ما سواه ورائي ظهرياً"[18]. وفي هذا نرى النقد الذاتي الصريح الذي يشغل بال المخلصين آناء اليل وأطراف النهار؛ ومن ثم يؤيدهم الله تعالى بما تنشرح له الصدور، وتهتدي به العقول. والوصول إلى هذه المرحلة من الشفافية مع النفس، يسهل عملية الصدع بالحق والاعتراف بالخطأ بين الناس، وهذا هو ما أقدم عليه الأشعري، فلم يمنعه أن تبحر في كلام الاعتزال، وبلغ فيه الغاية والإمامة أن يقف بين أتباعه يفند آراءهم ويرد شبهاتهم ولعل هذا المسلك هو ما دعا ابن تيمية للإشادة بالأشعري في منهاج السنة بقوله:" وهذا مما مدح به الأشعري؛ فإنه بين من فضائح المعتزلة وتناقض أقوالهم وفسادهم ما لم يبينه غيره، لأنه كان منهم، وكان قد درس الكلام على أبي علي الجبائي أربعين سنة، وكان ذكياً، ثم إنه رجع عنهم وصنف في الرد عليهم، ونصر في الصفات طريقة ابن كلاب لأنها أقرب إلى الحق والسنة من قولهم"[19] ويضاف إلى هذا النموذج الفذ للأشعري ما نقله الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء عن إمام الحرمين الجويني الشافعي الأشعري، والذي يعد من المجددين داخل المذهب، أنه انتقد على الأشاعرة –وهو علم من أعلامهم– مسائل، وردها عليهم، وتبحر في علم الكلام حتى بلغ الغاية فيه، إلا أنه رجع عنه أخيرا. وقال في مرضه الذي مات فيه:" اشهدوا علي أني قد رجعت عن كل مقالة تخالف السنة، وأني أموت على ما يموت عليه عجائز نيسابور "[20].

والدعاة المعاصرون في حاجة ماسة إلى هذا النوع من الشفافية في نقد الذات، والاعتراف بالهفوات، والتجرد للحق أينما كان. فذلك مما يكسبهم المصداقية المؤثرة التي لا تدعي العصمة، ويؤهلهم لتطوير الذات وتحسين الأداء، ولعل وقوف الدعاة المتكرر على بعض هذه المراجعات والتصحيحات لأئمة المذهب الأشعري ولغيرهم من أعلام الفكر الإسلامي، يرسخ عندهم هذا المعنى، ويخفف من معاندة النفس إن جانبها الحق يوماً، أو سمعت به من غيرها. ويتأكد هذا الأثر في الدعوة المعاصرة من خلال النقاط الآتية:

- ظهور كثير من الدعوات والأيدولوجيات المعاصرة التي تنادي بعصمة الأفراد، وخاصة من يمثلون الأديان تفرض على دعاة الإسلام أن يتميزوا ببشريتهم الحقيقية التي قد تخطئ وتصيب.
- من الأشياء التي يحترمها العقلاء والمثقفون في العصر الحاضر مراجعة الذات والاعتراف بالخطأ.
- تطوير الأداء وتنمية النفس مرهون بمعرفة مواطن القوة والضعف في الإمكانات البشرية والقدرات العقلية.

خامسا- التعمق الفكري والإبحار العلمي

لا حرج أن يتنقل الداعية الحصيف من فكرة إلى فكرة، ومن رأي إلى رأي، ما كان باحثاً عن الحق، محصَّنا بما يحفظه من الانحراف عن المبادئ أو الخديعة بغيرها؛ فذلك مما يزيد الداعية خبرة ودراية في سوق الفكر ومنتجات العقول؛ كما يعينه على تمييز الجيد من الرديء والنفيس من الغث.

وعند دراسة المذهب الأشعري، يجد الداعية نفسه أمام موسوعة فكرية غزيرة، لا تعرض لرؤية واحدة في الفكر والعلم، إنما هو التنوع الفكري الدقيق، والتبحر العلمي العميق، الذي تجلى في كثير من أئمة المذهب، يظهر ذلك من خلال كثرة مؤلفاتهم، وفي سرعة بديهتهم، وقوة وتنوع بيانهم وحجتهم. ومن أبرز أئمة الأشاعرة الذين يُذكرون في هذا الباب، ويقتدى بهم فيه: الإمام الرازي. يقول السبكي في طبقاته عنه: "قال الرازي في وصيته، في آخر حياته: اعلموا أني كنت رجلاً محباً للعلم، فكنت أكتب من كل

شيء شيئاً لأقف على كميته وكيفيته، سواء كان حقاً أو باطلاً، ... ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال لله، ويمنع عن التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات،... وأما الكتب التي صنفتها، واستكثرت فيها من إيراد السؤالات، فليذكرني من نظر فيها بصالح دعائه، على سبيل التفضل والإنعام، وإلا فليحذف القول السيء، فإني ما أردت إلا تكثير البحث وشحذ الخاطر"[21]. فانظر الى مقالته يصف نفسه بحب العلم، والبحث عنه، والتنوع فيه، ثم تبحره بين مناهج الفلسفة وطرق الكلام في البناء الفكري، ثم انظر إلى أثر ذلك التنوع الفكري الصادق، والتبحر العلمي المتجرد، فقد زاداه تعظيما للقرآن، واعترافا بهيمنته وتفرده بالعظمة والإجلال. ولا يخفى مردود هذا التنوع الفكري، والتبحر العلمي في تميز الداعية المعاصر في عدة جوانب، منها:

- في جانب البناء الثقافي والروحي؛ مما يجعله يقف على قاعدة صلبة يستبين من خلالها الحق، ويميز بين القوي والضعيف، والراجح والمرجوح في الآراء والأفكار. ولعل هذا هو الدرس الذي يمكن أن يتعلمه الدارسون للمذهب الأشعري، عندما يقرؤون عن المراحل الثلاث التي مر بها الأشعري حتى وصل الى ما وصل إليه من فكر السلف. فقد روي أنه مر بمراحل ثلاث: بدأت بالاعتزال، ومرت بمذهب ابن كلّاب، وانتهت بمذهب السلف.[22] وأعتقد أنه لا يمكن لأحد أن يرتقي هذا الارتقاء الفكري إلا إن كان مصاحباً للعلم بفروعه، واعياً ومدركاً لدقائقه، ممحصاً ومفنداً لنظرياته وقواعده، متفاعلاً بروحه وقلبه لآثاره وحقائقه.
- في جانب الدعوة العملية. فالعلم والثقافة، يبعثان الثقة في النفس، والقوة في البيان، والتنوع في الدليل؛ مما يجذب العلماء، ويفحم المجادلين، ويسكت الجاهلين، ويهدي المترددين.
- نجاح الداعية في العصر الحاضر، وقبوله عند مدعويه، واحترامه عند معارضيه، يعد من أبرز الأدلة على تميزه الفكري، وتبحره العلمي، كما سيكون سنداً له في سرعة البديهة وحضور الذهن؛ مما يحصنه من صدمة المفاجآت الفكرية، أو المداخلات العلمية في المنتديات واللقاءات المعاصرة.

هذه هي بعض ملامح آثار المذهب الأشعري في صياغة شخصية الداعية المعاصر وبناء عقله وفكره بما يجعله داعية عصرياً، يؤثر بالفكر، ويدعو بالحكمة والموعظة، ويجادل بالتي هي أحسن كل ذلك على قاعدة الالتزام بالأصول والاعتماد على قاعدة الثوابت الشرعية.

المبحث الثاني

أثر الأسس الفكرية لمذهب الأشاعرة في مضمون رسالة الدعوة

رسالة الدعوة: هي القالب الذي تصاغ من خلاله مفاهيم الدعوة وقيمها التي يحملها الدعاة، ويقومون بنشرها في العالمين. وكما أن الدعوة –في حراكها العام– تتأثر بفكر دعاتها وطرقهم في تبليغها، فهي كذلك تؤثر في دعاتها، فكراً، وروحا، وعملا. فلا يُكتفى في الدعوة المعاصرة بقدرة الداعية الفكرية والحركية في تبليغ الرسالة، إنما لابد أن يكون مضمون الرسالة التي يتحرك بها الدعاة ويمثلونها بين الناس مصنوعاً على عين ثاقبة، مرتبطاً بالأصالة والثوابت، مترجماً للمعاصرة والواقعية. وبناءً على وضوح مفاهيم الرسالة وحسن صياغتها؛ تكون حركة الدعاة العملية الموفقة، وتكون البراعة في التبليغ وسرعة التأثير.

ومن خلال هذا المبحث، نحاول أن نتعرف على بعض ملامح الرسالة الدعوية المتأثرة بالمذهب الأشعري في صياغة المضمون وتقديمه. فالمتتبع لحركة المذهب الأشعري ورجاله، يجد عدة إسهامات متميزة ساعدت على إظهار حقيقة الرسالة الدعوية وصبغها بخصائص ومعالم أهلتها لمخاطبة العصر والمعاصرة. ومن خلال النقاط الآتية، نتبين بعضا من هذه الآثار، ونتعرف على إفادتها لمضمون الدعوة المعاصرة.

أولا– احترام العقل مع الاحتفاظ بمنزلة النقل

الرسالة الدعوية المؤثرة هي التي تحرك الحواس، وتجذب العقول، وتدفع إلى التفكير، حتى إذا وصلت إلى القلوب تصل متجذرة ثابتة مبنية على قناعة ويقين، ومن هنا يكون أثرها فيمن حولها. فليس في دعوة الإسلام "أطفئ سراج عقلك واتبعني"[23]، بل نجد قول الله تعالى:﴿إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾(يوسف:2). ومن هنا كان من الضروري للدعوة المعاصرة أن تتميز في رسالتها بالجمع بين العقل والنقل، وتُعرف باحترامها للعقل في إطار الإيمان والتصديق. وهذا الاحترام المقنن للعقل هو أحد ثمار النقل البين الواضح، فلولا النقل وما جاء به من آيات وهدايات ما كان للعقل هذا الدور في دعوة الإسلام، ولولا حرص النقل على إعمال العقل وتقدير دوره ما جاء النقل متماشياً مع قدرات العقل السليم واستيعابه.

ولعل حديث القرآن في أكثر من موضع عن المجادلة وتقنينها مع غير المسلمين. ورفع الحرج والتكليف الشرعي–في السنة– عن فاقد العقل يعد من أبرز الأدلة على مكانة العقل وضرورة إعماله في إقامة أحكام الإسلام. وهذه القضية رغم وضوحها في

شرعنا لكل متفحص واع إلا أن تاريخ الفكر الإسلامي، يسجل اختلافات وإشكالات كبيرة حول مكانة العقل ودوره إلى جانب النقل، خاصة على مستوى التفكير العقدي. وقد نجم عن هذه الاختلافات، ظهور اتجاهات إسلامية فكرية مختلفة، منها ما يعطي الأولوية للعقل على حساب النص، ومنها ما يحجر على العقل ويتمسك بحرفية النص. من هذا الواقع الفكري انطلق مؤسس الأشعرية، أبو الحسن الأشعري، ليصوغ فكراً ومنهجاً وسطياً، يؤكد الاعتبار الشرعي للنص، وفي الوقت نفسه يعارض خصوم العقل، وينتقد جمودهم واعتمادهم على التقليد. وكنتيجة لذلك التوجه شاعت قاعدة الأشاعرة في هذا الباب أن "العقل الصحيح والنقل الثابت الصريح لا يتعارضان."[24]

والدعوة الإسلامية المعاصرة، قد تضطر في كثير من المواقف لمخاطبة العقل مباشرة، واستخدام حججه وأدلته في عرض كثير من موضوعات الدعوة وأصولها، خاصة، مع غير المسلمين الذين لا يدينون بالنقل وأدلته، ولا يسلمون به كمصدر وقفي يقيني يجب التسليم والإذعان المطلق له، إنما أساس معرفتهم واعتقادهم هو ما خاطب العقل ووافق الفكر. وهنا يكون العقل–في مصطلحات الدعوة المعاصرة– وسيلة دعوية لازمة، وطريقًا استراتيجيًا ملحًا، يدفع للتصديق بالنقل والإيمان به، فهو من أجل الوصول إلى النقل، لا لإلغائه أو الترفع عليه. وهذا المبدأ، تميز به الأشاعرة– رغم معارضة كثيرين لهم ممن ظنوا أن في ذلك إهدارا للنقل وإهمالا له– في وقت كانت الدعوة أحوج إلى أمثالهم أكثر من غيرهم ."فنجد كتبهم تقدم الأدلة العقلية على الأدلة النقلية في مجال الاستدلال في العقائد، في باب العقليات، وذلك لأن المراد منها هو الرد على المخالفين، كالدهريين، وأهل التثليث، والمشركين، والمجسمة ونحوهم"[25].

والرسالة الدعوية المعاصرة في أمس الحاجة إلى هذا العرض، الذي يحترم عقل الإنسان فيخاطبه، ويقدر الفكر فيحاوره. وما أجمل أن تعرض أصول الدعوة وثوابتها بهذا الفهم، الذي يحرك العقل بروح النقل، ويؤكد منزلة النقل بنور العقل في إطار التأمل والتدبر، والتفكر والتعقل. فكم من كثيرين أسلموا لله وجههم عندما نوقشوا في قضية الوحدانية لله، واستحالة التثليث، أو قضية وجود الله تعالى، برسالة تخاطب عقولهم، وتستحث فكرهم؛ فإذا قلوبهم تخشع للحق، وأرواحهم تلين لكلمات الوحي، الذي توج الدعاة به حججهم وبراهينهم العقلية.

ثانيا– وضوح المنهجية في المرجعية والمصدر

الأصل أن رسالة دعوة الإسلام واضحة المصدر والمرجعية. وذلك معلوم عند المسلمين جميعاً. ولكن علماء المسلمين اختلفوا في قضية اعتماد العقل مع النقل في الاستدلال لقضايا العقيدة. وأيهما يقدم عند التعارض؟ والدعوة الإسلامية المعاصرة لا يعنيها تفاصيل هذا الخلاف، وما ينبغي أن تخوض غماره، بل كل ما يعنيها وضوح المنهجية المتبعة في عرض أصول الدعوة، وملاءمتها لطبيعة المدعو وبيئة الدعوة.

والأشاعرة –كما أوضحنا سلفا– حسموا موقفهم في هذا، فهم يقدرون العقل، ويضعونه الموضع الذي أراده له النقل، فهو معني بالتأمل والتدبر، وعليه مدار التكليفات. والمتابع لكتب العقيدة عندهم، يجد تكرارا لبيان هذه المنهجية، وشرحا لكيفية استخدامها واعتمادها، فهم يتناولون "الأدلة العقلية والنقلية على وجه التعاضد، فكل منهما يؤيد الآخر، فالعقل الصحيح والنقل الثابت الصريح لا يتعارضان، بل يستحيل وقوع التعارض بين قضية عقلية قطعية ونص نقلي إذا كان قطعي الورود قطعي الدلالة، لأن الحقائق تتآلف ولا تتخالف"[26]. ويأتي مؤسس المذهب ليزيد الأمر وضوحا بقوله: **إن**(حكم مسائل الشرع التي طريقها السمع أن تكون مردودة إلى أصول الشرع التي طريقها السمع، وحكم مسائل العقليات والمحسوسات أن يرد كل شيء من ذلك إلى بابه، ولا تخلط العقليات بالسمعيات، ولا السمعيات بالعقليات)[27].

ولاشك أن وضوح منهجية الاستدلال والتلقي والتأكيد عليها بهذه الطريقة في مجال عرض رسالة الدعوة، يعطي مزيدا من المصداقية الروحانية والطمأنينة العقلية. المصداقية الروحانية: في الاعتماد على النقل في كونه مصدراً أساسياً للتشريعات. والطمأنينة العقلية: وذلك من خلال اعتماد البراهين والأدلة.

وتميز الرسالة بهذا الوضوح في مرجعيتها ومصدرها يعطيها فاعلية وواقعية، مما يضمن للدعوة استمرارا وانتشاراً أفقيا ورأسيا، محفوظا من الانحراف والزيغ الذي قد يصيب العقلانية المحضة التي لا تنتمي لوحي، ولا تعترف بالنقل، أو النصية الجامدة التي لا تستعين بنور العقل في التوضيح والبيان، ولا تحركه للتأمل والتدبر. يقول الغزالي: "وأهل النظر في هذا العلم يتمسكون أولاً بآيات الله تعالى من القرآن، ثم بأخبار الرسول ﷺ، ثم بالدلائل العقلية والبراهين القياسية"[28].

ثالثا– الاجتماع والوحدة لا التفريق والفرقة

تعرف قيمة الرسالة وقوة أثرها بمدى اقتناع الناس بها، والالتفاف حولها، وتبني نشرها، فذلك دليل واقعيتها وملاءمتها للفطرة.

والمتتبع لتاريخ الأمة الفكري يدرك أنه لم يعرف إجماع على مذهب عقدي، كحجم إجماع الأمة على مذهب الأشاعرة. يقول الشيرازي: "أبو الحسن الأشعري، إمام أهل السنة، وعامة أصحاب الشافعي على مذهبه، ومذهبه مذهب أهل الحق"[29]. ويقول السبكي: "الشافعية، والمالكية، والحنفية ... أشعريون، هذه عبارة ابن عبد السلام شيخ الشافعية، وابن الحاجب شيخ المالكية، والحصيري شيخ الحنفية"[30]. وهذا القبول بين الأمة وأئمتها لهذا المذهب الفكري له دلالات كثيرة، منها: ما يرجع إلى المنهجية في حد ذاتها، ومنها: ما يرجع إلى التوفيق في العرض والأسلوب، وإصابة المقصود بما لا يعارض الثوابت، ولا يصطدم مع الواقع.

ولا يخفى، أن مثل هذا الاتحاد والاتفاق الواسع بين شرائح الأمة على مذهب الأشعري، يعطي نوعاً من قوة الاتحاد، واتحاد القوة، مما يضع الأمة في موضع الاحترام والتقدير، وخاصة في أعين المراقبين لها، كما أنه يبعث على الثقة والاعتزاز في قلوب الأتباع المنتمين لهذه الأمة.

وأعتقد أن من أهم الأسباب التي أهلت المذهب الأشعري ليكون مذهب الأكثرية من الأمة في الاعتقاد: هو الانضواء تحت لواء السنة المطهرة، فمذهبهم هو مذهب أهل السنة، وإمامهم هو إمام أهل السنة. كما أنهم وظفوا جُلَّ قواهم وطاقتهم الفكرية ضد معارضي الحق من خارج الأمة، من أمثال: الملاحدة، والفلاسفة، والزنادقة، ولم يكونوا سيفاً مسلطاً على الأمة في داخلها؛ فأكسبهم ذلك النصراء والأعوان من صالحي الأمة ومصلحيها. فتحديد الخصم في معركة العقيدة يدفع إلى القرار المناسب، ويؤهل للموقف الحاسم، كما أنه يعمل على اتحاد الأمة ووحدتها.

والدعوة الإسلامية المعاصرة –في خطابها ومضمون رسالتها– مطالبة بهذا النهج المجمع الذي يتآلف عليه الأكثرية، مما يمثل ثقة وتأثيراً في أعين الباحثين عن جوهر الدعوة، كما أنه يعد قوة وصلابة أمام المناوئين لها. فالمعروف أن العدد والكثرة، والاجتماع والوحدة من الأشياء التي يحسب لها الحسابات الكبيرة، وتحديداً في عالم الأديان، وموازين الأمم. فالانتماء إلى أمة موحدة قوية، يعتبر فخراً للأتباع، ورهبة للمنكرين المعادين.

رابعا– السهولة والمباشرة في العرض والبيان

تحتاج الرسالة الدعوية إلى أن تكون سهلة غير معقدة في مضمونها، ومباشرة لا تحتمل تأويلات في بيانها وعرضها، خاصة فيما يتعلق بقضايا الاعتقاد؛ فذلك أدعى إلى سرعة التفاعل معها، والتقبل لها. وهذا هو مبدأ القرآن الكريم في تعريفه بأركان الإيمان، فتجد –مثلا– آيات قليلة في سورة صغيرة كالإخلاص تتحدث عن الله تعالى، وتبين أسماءه وصفاته في أوضح بيان وأعمق استدلال. وعلى هذا المنهج في البيان الميسر والعرض المباشر، نجد كثيراً من علماء الأشاعرة، فبجانب المؤلفات الضخمة المتنوعة التي تميز بها علماؤهم، نجد المختصرات الواضحة والسهلة في تناول أمور العقيدة، مما جعلها أسرع انتشاراً بين العامة؛ وذلك لتميزها بإيجازٍ لا خلل فيه، وسهولةٍ مصحوبةٍ بالإمتاع والإقناع. من هذا على سبيل المثال: الأربعين في أصول الدين، لأبي حامد الغزالي[31]، فقد ضم أربعة أقسام، القسم الأول: في العقائد. والقسم الثاني: في الأعمال الظاهرة. والقسم الثالث: في الأخلاق المذمومة. والقسم الرابع: في الأخلاق المحمودة. كل ذلك في أقل من ثلاثمائة صفحة. وله أيضا الاقتصاد في الاعتقاد. ومثلهما في الإيجاز مع الإقناع والإمتاع: الاعتقاد للبيهقي، والأربعين للرازي، والطحاوية للطحاوي، وعقيدة المسلم للغزالي،... وغيرهم كثير.

ومثل هذه المؤلفات بما حوت من رسائل متنوعة عن الإسلام وأصوله، تصلح أن تكون مادة لرسالة الدعوة المعاصرة، التي يتميز مدعووها بالسرعة والعجلة في الأمور كلها، ولذا بات من الضروري أن يستفيد الدعاة من هذه المختصرات الجامعة في المفاهيم والاستدلالات، فهذا مما يساعد على سماع أكثر واستجابة أوسع.

خامسا– الشيوع بين طبقة الباحثين من غير المسلمين

الدعوة تحتاج إلى دعاية تسبق الداعي إلى المدعوين، ومعرفةٍ عامة تؤهل المدعوين للاستقبال والسماع. ولاشك أن وصول خبر الدعوة للعامة من خلال أحاديث ودراسات مثقفيهم وعلمائهم، يعطي أرضيةً تمهد لرسالة الدعوة، وخاصة عندما تصبح موضوعات الدعوة تخصصاً لبعض الباحثين في دراساتهم ومنتدياتهم؛ فيبحثون عنها بأنفسهم، ويعرِّفون بها في محافلهم، وقد يَذُودون ويدافعون عنها أمام من يعاديها.

وغالب العلماء الأكاديميين من غير المسلمين في تخصص الدراسات الإسلامية لا يهتمون إلا بالعظيم الجلل في موضوعه، الواسع تأثيرا بين الأتباع، وهذا مما توفر للمذهب الأشعري في الموضوع، وطرق العرض، والحجج والبراهين، وكذلك في شيوعه وكثرة أتباعه بين أفراد الأمة، مما دفع كثيراً من الباحثين من غير المسلمين إلى الانشغال بالمذهب وأئمته، على اعتبار أنه مدرسة فكرية إسلامية عتيقة في جذورها، عميقة في منهجها، مما أهله أن يحتل مركزاً محورياً في دراسة الفكر الإسلامي في جامعات

أمريكا وأروبا وغيرهما كما أوردت الدراسات المعاصرة[32]. وإن كان بعض هذه الدراسات قد نحا طريق المستشرقين في المنهجية والهدف، بما لا نتوافق معه، إلا أن إبراز المذهب والاعتناء به بين طبقة الباحثين بشكل عام يعد وسيلة دعوية يمكن للداعية الحصيف أن يسلك بها طريقا للتعريف بالإسلام ورد الشبهات عنه في بلاد الغرب، وخاصة عندما يتحدث عن الإسلام، فيجد بعضا ممن يهتمون بدراسة الفكر الإسلامي، يتجاذبون أطراف الحديث والنقاش عنه فيما يتحدث حوله من رسالة الإسلام، فيسهل ذلك عليه مهمته، ويجعل كلامه مألوفاً مقبولاً بين السامعين.

ولاشك أن نشر بعض مفاهيم الدعوة والتعريف بها على غير يد دعاتها يعد من الوسائل الدعوية غير المباشرة، التي لا تتحقق في كثير من الأحيان إلا بالتكاليف الباهظة والجهود الضخمة، ولكنها تحتاج إلى داعية حصيف، يلتقط أطرافها، ويوظفها في مهمة البلاغ والبيان.

المبحث الثالث

أثر الأسس الفكرية لمذهب الأشاعرة في المدعو

المدعو: هو هدف الدعوة، من أجله يتحرك الدعاة، وتُوضع البرامج، وتُعد الدراسات. ومن المؤكد أن إيجاد داعية معاصر، يتمتع بالمواصفات التي سبق الإشارة إليها، ودعوة واقعية، تتحلى بما ذكر من ملامح في المبحث السابق، سيعين –بشكل مباشر– على تسهيل مهمة تبليغ الدعوة بين المدعوين، ويعمل على حسن بيانها والانتفاع بها.

وفي هذا المبحث، يحاول الباحث أن يشير إلى بعض الآثار التي يساهم المذهب الأشعري–من خلالها– في مساعدة المدعو على استيعاب مضمون الدعوة وتيسير قبولها والاقتناع بها. وبيان ذلك كالآتي:

أولا- إيقاظ القلوب وتحريك العقول

مفتاح الهداية إلى رسالة الإسلام هو القلوب عندما ترتبط فطرتها بأصلها. وإذا استيقظ القلب، نشطت جوارح المدعو، ودعّم بعضها بعضا، ويأتي في مقدمة هذه الجوارح العقل، الذي إن وُصل بالقلب السليم، استطاعا أن يؤديا معاً دوراً معتبراً في إحياء الفطرة، وتقوية العقيدة، وزيادة الإيمان.

ولا يُكتفى بامتلاك القلب والعقل، إنما لا بد من توفر أدوات أخرى تعين على بقاء حراكهما وفاعليتهما بإيجابية تجاه الحق. يقول تعالى: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾(الأعراف:179). ويقول سبحانه: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾(ق:37). فقد يكون القلب موجوداً ينبض بالحركة العضوية، ولكنه معطل روحانياً، يحتاج إلى عملية شحذ، وإيقاظ لفطرته، والداعية الموفق هو من يعين مدعوه على إحياء قلبه، وتفعيل عقله في آنٍ واحد، مع إمدادهما بما يبقيهما من معينات تعمل على فهم الرسالة والتعامل معها، والإسهام في حملها والدفاع عنها.

والمذهب الأشعري –كما ذكرنا– يمكِّن الداعية من بعض أدواتِ تفعيل العقول، ومؤثرات القلوب في مخاطبة الآخر ومحاورة المعاند. نأخذ –على سبيل المثال– طريقة الإمام الرازي(وهو من أقطاب الأشاعرة) عند تفسير قوله تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ. هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(آل عمران:5،6) فقد قال:(هذه الآية إشارة إلى كمال علمه سبحانه. والطريقُ إلى إثبات كونه تعالى عالماً لا يجوز أن يكون هو السمع، لأن معرفة صحة السمع موقوفة على العلم بكونه تعالى عالماً بجميع المعلومات، بل الطريق إليه ليس إلا الدليلَ العقليَّ، وذلك هو أن نقول: إن أفعال الله تعالى محكمة متقنة، والفعل المحكم المتقن يدل على كون فاعله عالماً، فلما كان دليل كونه تعالى عالماً هو ما ذكرنا؛ فحين ادعى كونه عالماً بكل المعلومات بقوله: ﴿إنَّ الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾؛ أتبعه بالدليل العقلي الدال على ذلك، وهو أنه هو الذي صور في ظلمات الأرحام هذه البنية العجيبة، والتركيب الغريب، وركبه من أعضاء مختلفة في الشكل والطبع والصفة، فبعضها عظام، وبعضها غضاريف، وبعضها شرايين، وبعضها أوردة، وبعضها عضلات، ثم إنه ضم بعضها إلى بعض، على التركيب الأحسن، والتأليف الأكمل، وذلك يدل على كمال قدرته،... ويدل على كونه عالماً، من حيث إن الفعل المحكم لا يصدر إلا عن العالم)[33] فانظر كيف استطاع –رحمه الله– استخدام النقل الذي يوقظ القلب، ويحيي الروح، ويخاطب الحس؛ لتقريب المعنى المراد في صورة معقولة، مما يسهل على المدعو الفهم والاستيعاب مع الاقتناع والقبول.

وبهذه النتيجة–في تفاعل العقل مع القلب– صرح كثير من المدعوين المعاصرين[34]، عندما سئلوا عن سبب إسلامهم. فقالوا: سماع آيات القرآن تُتلى عليهم شَرح صدورهم، ونزل برداً وسلاماً على قلوبهم، فأيقظ فطرتهم بأسئلة واستفسارات دفعتهم للسؤال والاستبيان، فسمعوا كلاماً منطقياً، وحججاً وبراهين، فتقت عقولهم بميلاد جديد، حرك فيهم المقارنة والتقييم، والتمييز بين اعتقاد

واعتقاد؛ مما زودهم بمعارف مَحّصت وفنّدت مُسلّمات ورثوها، وجلت لهم الحق بعدما حيل بينهم وبينه. يقول أحدهم –بعد أن هداه الله للإسلام وقد بلغ الأربعين–: أين كان قلبي وعقلي طوال هذه الأربعين!؟ ولازال يدين بالحب والولاء للدعوة والداعية اللذين أرشداه إلى أن له عقلاً وقلباً، لا يمكن الاستغناء عنهما، وخاصة في أمور الاعتقاد والقيام بمتطلباته. يقول تعالى: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾(الأنعام:125).

إن عرض أمور العقيدة والإيمان من منطلق نصوص الوحي –فقط– دون إبداء التفسير والبيان المقرب للأفهام والعقول، والمُدَعم بذكر الأسباب والحِكَم، قد لا يكون كافيا عند كثير من المدعوين المعاصرين، وخاصة، الذين أَلِفوا التبريرات العقلية، وتعودوا على حجاج المنطق وخطاب الواقع، وجَمْعُ الداعية بين مخاطبة العقل والقلب في دعوته سيجعل لها أثراً أوسع في الانتشار والقبول، وأثبت في قلوب المهتدين.

ثانيا– معالجة الحيرة وطمأنة النفوس

المدعو في بدايات الدعوة تعتريه أسئلة واستفسارات كثيرة، قد تصيبه بالاضطراب النفسي والحيرة الفكرية، وقد يصل به الأمر إلى التردد والشك إنْ لم يجد ردوداً شافية مقنعة، وتبصُّراً لمّاحا لواقعه، وقد لا يكتفي في هذه المرحلة بالإحالة إلى التفويض المطلق كإجابة للمدعو، إنما لابد أن يحيط الداعية بطرائق دعوية متعددة، تعينه على أن يسلك الأنسب في تخفيف حدة التوتر والحيرة، كما يجب أن يكون ملماً بالمذاهب والآراء الفكرية المرتكزة على الشرع وثوابته، والمقبولة عقلا، ليختار منها ما يدفع المدعو إلى الثبات وطمأنينة النفس، خاصة في مرحلة البدايات. من ذلك على سبيل المثال: سؤال المدعو الداعية عند قوله تعالى:﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾(الأعراف:51). هل يمكن أن ينسى الله؟ فإن كانت الإجابة قبولها على ما جاء في ظاهرها ربما زادت حيرة المدعو. وهنا قد يجد الداعية مذهب الأشاعرة الذي يقول: "بضرورة التأويل بصرف الآية عن ظواهرها إذا وجد الدليل"[35]، هو الرد الأنسب في التعامل مع المدعو مراعاة لحاله وقدرة استيعابه. ومثله أيضاً سؤال المدعو عن قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾(الرحمن:31)هل الله–جل وعلا– مشغول حتى يتفرغ لحساب الثقلين؟ فالسكوت عند هذا النص، لا يصلح أن يكون إجابة للمدعو في مرحلة التعرف على رسالة الدعوة، إنما قد يكون الأولى في هذه المرحلة أن يأخذ الداعية ببعض آراء العلماء الأقرب إلى الفهم والتأويل، فتكون الإجابة أن المقصود في الآية الوعيد بمحاسبتهم، وأنه سبحانه لا يشغله شيء عن شيء. يقول ابن كثير: (وهو معروف في كلام العرب، يقال: لأتفرغن لك، وما به شغل) [36].

ومثل هذه المنهجية في الإجابة قد تستخدم أيضا مع كل سؤال عن مشابهة الله سبحانه للحوادث. قال الباقلاني: (وغضبه تعالى على من غضب عليه، ورضاه عمن رضي عنه هما إرادته لإثابة المرضيِّ عنه وعقوبةِ المغضوب عليه، لا غير ذلك ،... وكذلك الحب والبغض والولاية والعداوة هو نفس الإرادة للنفع والإضرار)[37].

واستخدام الداعية لمثل هذا النوع من الإجابات معتمداً على بعض آراء الأشاعرة إنما هو لضرورة المرحلة ومراعاة لقدرات الداعية ومستوى الإيمان في قلبه، فذلك مما يفتح للمدعوين المبتدئين آفاقاً من الطمأنينة والاستقرار الروحاني المدعوم بالفهم والإقناع، مما يساعد على الهداية والقبول؛ إذ يجد المدعو نفسه أمام تعامل مضبوط مع النصوص لا يتعارض مع ثوابت الرسالة، كما لا يصطدم مع قدرات العقل في الفهم والاستيعاب وخاصة في الأمور الغيبية.

ثالثا–التدرج المرحلي في بناء صرح الإيمان

المدعو الذي تحول من ظلمات الضلال إلى نور الهداية، يحتاج أن يُؤخذ إلى زيادة الإيمان وكماله رويداً رويداً، على يد حانية متأنية؛ وذلك حتى يستطيع أن يتحمل متطلبات الإيمان، ويؤدي تكاليفه. ولازلت أذكر قول أحد المدعوين بعد خمسة أعوام من إسلامه، عندما سئل عن التحديات التي واجهته في بداية إسلامه فقال: الصلوات الخمس. فما كان يتصور أنه يمكن أن يصلي خمس مرات في اليوم، حتى وجد من يعينه خطوة خطوة، ويأخذه بيد اللين عند تقصيره، ويذكره بلطف عند غفلته. ثم يقول: وأنا الآن لا يمكن أن أتصور نفسي في هذه الحياة بدون الصلوات الخمس، فهي بالنسبة لي كالهواء الذي لا حياة لي بدونه. ويشهد القريبون منه أنه فاقهم في المواظبة والحرص على صلاة الفجر في المسجد مع الجماعة يومياً.

ولازلت أذكر –أيضا– مدعواً آخر لم يمكث مسلماً إلا أسبوعين؛ ذلك أنه التقى بمن قال له: يجب أن تطبق خصال الفطرة كاملة –بما فيها الختان –وذلك حتى تحقق متطلبات الإيمان، فالعمل الصالح شرط لصحة الإيمان.

وهنا يأتي دور الداعية وحكمته في اختيار الأنسب من الآراء المعتمدة في قضية الإيمان وعلاقته بالعمل الصالح؛ فذلك مما يعين مدعوه على استكمال رحلة الإيمان من غير خسائر على الطريق. يقول ابن حجر ملخصاً هذه المذاهب: (والإيمان لغة: التصديق، وشرعاً: تصديق الرسول فيما جاء به عن ربه، وهذا القدر متفق عليه، ثم وقع الاختلاف: هل يشترط مع ذلك مزيد أمر

من جهة إبداء هذا التصديق باللسان المعبر عما في القلب إذ التصديق من أفعال القلوب؟ أو من جهة العمل بما صدق به من ذلك كفعل المأمورات وترك المنهيات؟.. فالسلف قالوا: هو اعتقاد بالقلب، ونطق باللسان، وعمل بالأركان، وأرادوا بذلك أن الأعمال شرط في كماله،... والمرجئة قالوا: هو اعتقاد ونطق فقط، والكرامية قالوا: هو نطق فقط، والمعتزلة قالوا: هو العمل والنطق والاعتقاد، والفارق بينهم وبين السلف أنهم جعلوا الأعمال شرطاً في صحته، والسلف جعلوها شرطاً في كماله)[38]. وابن حجر يشير بقوله: "السلف" إلى الأشاعرة، فمذهبهم أن الأعمال الصالحة هي ثمرات للإيمان[39].

ولا يعني ذلك إهمال الأعمال الصالحة أو الإقلال من شأنها، إنما المقصود هو التدرج المراعي لحالة المدعو في بداية رحلة الإيمان؛ وصولاً إلى زيادة الإيمان والارتقاء بصاحبه؛ بالمعروف أن الحق إذا عرض جملة ربما يرفض جملة، إنما التدرج في البيان والتعليم يتيح فرصة للتعود وآفاقاً متجددة يتذوق المدعو من خلالها حلاوة الإيمان.

رابعا–التناغم الطبيعي مع الفطرة الإنسانية:

الأصل أن يحدث تناغم والتقاء طبيعي بين رسالة الدعوة ومبادئها وبين الحياة الإنسانية واحتياجاتها، فدعوة الإسلام هي دعوة الفطرة، بمفهوم عدم التعارض مع النفس البشرية وطبيعتها أو الاصطدام بها، يقول تعالى:﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾(طه:123). ولا ينشأ التعارض إلا مع سوء الفهم أو الجهل في التطبيق. ومن هنا كان من أهم ما يجب التركيز عليه مع المدعو هو تقديم الدعوة بعيداً عن اللبس وسوء الفهم، بما يعين على التطبيق الصحيح من غير تعارض مع الواقع ومستجداته.

فعرض الدعوة على المدعو في أن ما أمر الله به هو الحسن المحمود، وأن ما نهى عنه هو القبيح المذموم، وبيان أن هدف رسالة الدعوة هو عمارة الحياة وتطوير منظومتها، ودعم الخير والصلاح يحدث نوعاً من الوئام والتناغم مع النفس البشرية، ويلقي ظلالاً من الأمن والأمان الفكري والروحي، وذلك لالتقائه مع طموحات العقل السليم، وتطلعات الفطرة المستقيمة.

ومذهب الأشاعرة في قضية الحسن والقبح ومردهما من أفضل ما يعين الداعية على الوصول بمدعوه إلى هذا المستوى من التناغم بين المعتقد وواقع الحياة. يقول إمام الحرمين: "وإنما يُتلقى التحسين والتقبيح من موارد الشرع ومُوجب السمع"[40].

والأصل أن العقول والفطر السليمة عندما تتصل بموارد الشرع على سبيل الاعتقاد تكوِّن هذا الوفاق والالتقاء؛ مما يساعد على التزام الحسن وتجنب القبيح، ويحوله من التقليد والعادة إلى الاتباع والعبادة. وهذا ما يفسر حال كثير من المدعوين في المجتمعات التي أصبحت بعض القبائح والفواحش فيها عرفاً مقنناً، فما أن يتلقى هؤلاء المدعوون نور الوحي وهداية الشرع حتى تستقبح فطرتهم وتستهجن عقولهم كثيراً مما ألفوه واعتادوه بالأمس القريب، وهنا يبدأ تناغم الفطرة مع هداية الدعوة.

خامسا– تقدير الذات في تحمل مسئولية الاعتقاد:

يوجب الأشاعرة على المكلف (النظر) ويعنون به النظر في الأدلة العقلية والاستدلال بها في قضايا الإيمان الأساسية. فقد أمر الله به وحثّ عليه في عدد من الآيات القرآنية، منها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾(الأعراف:185)، وقوله تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(يونس:101)، وقوله تعالى:﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾(العنكبوت:20).كما أنهم يذمون التقليد في العقيدة، ويقصدون به محاكاة قول الغير من غير حجة، إذ لا يجوز لعاقل ترجيح قول على آخر بغير حجة له على هذا الترجيح، والترجيح بغير مرجح باطل، وليس هو من شأن العقلاء، والمقلد في العقيدة هو دائماً عرضة للانتقال بين الأقوال المتعارضة، من إيمان وكفر، وسنة وبدعة، لأنه لم يبن معتقده على دليل. وقد ذم الله تعالى المقلدين في العقائد وحث على اتباع ما تؤيده الحجج والبراهين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ﴾(البقرة:170) وقال تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ﴾(المائدة:104).

ضرورة النظر، الإحاطة بالدليل، عدم التقليد، كل هذه الأشياء تجعل أمر الدعوة جاداً لا هزل فيه، ومسؤولية ذاتية لا يحمل فيها أحد عن أحد شيئا. كما أنها تبني جيلاً يحمل الدعوة على قواعد متينة، لا تهزها العواصف ولا تنحرف بها الريح.

والمسؤوليات – بشكل عام – تُشعر الإنسان بذاته وبأن عمله ونيته مقصودة، وهذا مما يفتح باب التنافس في الخيرات، والتسابق في الطاعات، والإيجابية في المهمات والضرورات. ولازلت أذكر أحد المدعوين جاء ليعلن إسلامه أمام أحد الدعاة، وكان يظن أن هذا اللقاء مع الداعية شرط لإسلامه، ثم فوجئ بالداعية يقول له: إن أمر إسلامك بينك وبين الله، وشرطه: فهمك وإيمانك بأركان الدين، وإخلاص الوجه لله، ودوري في هذا المقام هو التعليم والبيان، بنية الثواب والأجر من الله، وإني لفي حاجة إلى دعاء من مثلك عند الميلاد الجديد بدخول الإسلام.

وهذا مدعو آخر وقف بين يدي أحد الدعاة ليعلن إسلامه، وكان مزهواً بنفسه، ظاناً أنه يقدم بإسلامه خدمة ونعمة للمسلمين

والإسلام، ثم فوجئ بالداعية يقول له: أنت تحتاج إلى مزيد من الوقت لتعرف أكثر عن بنود وشروط العقد الذي ستوقعه بنفسك مع الله، وكلف أحد الجالسين بمتابعته ومساعدته حتى يعلم حقيقة ما هو مقبل عليه. وما هي إلا أيام حتى عاد ليعلن إسلامه، ولكن بعد أن أجاب الداعية عن أسئلته التي كان قد أعدها لهذا اللقاء.

وهكذا يشعر المدعو بمسؤوليته عن عقيدته وتقويتها وتفعيلها في حياته، ومن ثم يكون مؤهلاً للقاء الله الذي يقول عنه سبحانه: ﴿وكلهم آتيه يوم القيامة فردا﴾(مريم:95). ومثل هذا المدعو المتحمل للمسؤولية من البداية يكون أنشط الناس، وأكثرهم حماسة عندما يؤدي واجب الدعوة في التبليغ ونشر مبادئها بين الناس.

الخاتمة

تشتمل على النتائج والتوصيات الآتية:

- وضوح منهجية الدعوة في احترام جميع المذاهب العقدية الإسلامية الصحيحة، والتشبث بالأصول والثوابت، مع المرونة في التعامل مع المتغيرات العصرية.
- ضرورة ارتباط الدعوة المعاصرة ودعاتها بالفكر الإسلامي – وخاصة في قضايا العقيدة وموضوعاتها – إذ لا يمكن أن تكون الدعوة في معزل عن الفكر وتطوراته، خاصة في مرحلة إعداد الدعاة وتكوينهم.
- أثبت المذهب الأشعري – بما يحويه من فكر سلفي، ومنطق عقلي، وقلب روحاني– أنه من أنسب المذاهب الفكرية التي يجب أن يحيط الدعاة المعاصرون بها دراسة وفهما وتطبيقا؛ فذلك يؤهلهم لمستوىً أرفع في المنطق والبيان، والحجة والحوار.
- لا يمكن للدعوة في العصر الحاضر أن تتميز بين الدعوات في أداء مهمتها بدون تعهد وبناء جيل متميز من الدعاة، يتبنى الوسطية منهجا، والفهم الدقيق والعلم الشامل وسيلة، وقوة الروح والإخلاص دعما، والابتكار والتجديد صنعة.
- ضرورة المراجعات الدورية للأفكار والوسائل والأساليب التي تتبناها الدعوة المعاصرة، والتأكد أن كل ما يتبنى في الدعوة صالح من الناحية الشرعية وموافق للزمان والمكان..

الهوامش

1. ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 54/1.
2. ابن منظور، لسان العرب، 6/1.
3. المرجع نفسه، 36/1.
4. الفيروز آبادي، القاموس المحيط،458/1.
5. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، 698/2.
6. بسيوني نحيلة، الأمان الفكري عند المدعو ضرورة في الدعوة المعاصرة، بحث مقبول للنشر مجلة كلية الشريعة جامعة الكويت.
7. عبدالرحمن بدوي، مذاهب الإسلاميين، ص487.
8. على محفوظ ، هداية المرشدين إلى طريق الوعظ والخطابة،ص17.
9. على مستوى المؤسسات الدينية : الأزهر الشريف إضافة إلى مؤسسة القرويين في فاس، والزيتونة في تونس. http://www.islamonline.net
10. ابن عساكر، تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى أبي حسن الأشعري،ص398.
11. محمد عبده، رسالة التوحيد، ص11.
12. ابن عساكر، تبيين كذب المفتري، ص15.
13. ابن عساكر، تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى أبي حسن الأشعري، باختصار وتصرف، ص149.
14. من ذلك: اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، للأشعري. وتهافت الفلاسفة، للغزالي...وغيرها.
15. ابن عساكر، تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، ص 94.
16. السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،231/3.
17. السكوني، عيون المناظرات،ص229.

18. ابن عساكر، تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري،ص39.
19. ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، 277/5.
20. الذهبي، سير أعلام النبلاء،474/18.
21. السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،48/8.
22. ابن عساكر، تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، ص41.
23. مجموع مؤلفات عقائد الرافضة والرد عليها، 108/31.
24. الإدلبي، عقائد الأشاعرة، ص55.
25. المرجع نفسه، ص55.
26. المرجع نفسه،ص55 بتصرف.
27. محمود صبحي، في علم الكلام، 58:59.
28. الغزالي، الرسالة اللدنية، ص106.
29. السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 376/3.
30. المرجع السابق نفسه، 373/3.
31. طبعة دار القلم، بيروت،2003م.
32. مجلة الأزهر، قراءة في كتاب، الإمام أبو الحسن الأشعري، 30 سبتمبر, 2014، http://www.azhar.eg/ar-eg
33. فخر الدين، الرازي، التفسير الكبير، 176/7.
34. من مواقف واقعية عاينها الباحث نفسه أثناء قيامه بواجب الدعوة بأمريكا.
35. الإدلبي، عقائد الأشاعرة، ص62.
36. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 496/7.
37. الباقلاني، التمهيد، ص27- 28.
38. ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري،46/1.
39. البيهقي، الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة، ص84 وما بعدها.
40. الجويني، الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد،ص228.

المراجع

الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل، الإبانة عن أصول الديانة(00)، دار ابن زيدون للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

الباقلاني، أبو بكر(1957)، التمهيد ، المكتبة الشرقية، بيروت، لبنان.

بدوي، عبدالرحمن (1997)، مذاهب الإسلاميين، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

البيهقي، أحمد بن الحسين(1959)، الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة، دار العهد الجديد، القاهرة، مصر.

الترمذي، محمد بن عيسى،(00) سنن الترمذي(00)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

الدمشقي، ابن عساكر علي بن الحسن(1347هـ)، تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى أبي حسن الأشعري، مطبعة التوفيق، دمشق، سوريا.

الدمشقي، ابن عساكر علي بن الحسن(1404هـ)، تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

الرازي، أبو بكر محمد بن يحي(1420)، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

السبكي، عبدالوهاب (1413هـ)، طبقات الشافعية الكبرى، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر.

السكوني، عمر(1976)، عيون المناظرات، سعد غراب، منشورات الجامعة التونسية.

صبحي، محمود،(1985) في علم الكلام، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان.

العسقلاني، أحمد بن حجر(1379)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، الجزء الأول، دار المعرفة، بيروت.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد زكريا (2002) مقاييس اللغة، الجزء الأول، عبدالسلام هارون، اتحاد الكتاب العرب.

الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، الجزء الأول، المكتبة الشاملة.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر(1999) ، تفسير القرآن العظيم ، دار طيبة للنشر والتوزيع.
محفوظ، علي(1952)،هداية المرشدين إلى طريق الوعظ والخطابة ، دار الاعتصام.
ابن منظور، محمد مكرم، لسان العرب(00)، الجزء السادس، دار صادر، بيروت، لبنان.

The Impact of Al-ashaari Intellectual Foundations on the Contemporary Islamic Dawa

Basyouny M. Nehela *

ABSTRACT

This study aims at proving that all the authentic Islamic schools of thought should be a reference for Dawa in the contemporary life, specially Al-ashaari school of thought, since it provides a lot of helpful strategies, effective characteristics and attractive approaches that can help deliver the Islamic Dawa in the present-day. the paper focuses on showing the impact of Al-ashaari Islamic school of thought on the content of Dawa, the performance of the caller and the response of the receiver of Dawa. the researcher concluded that even though, the contemporary Dawa cannot be limited to one school of thought since all the authentic Islamic schools of thought can benefit Dawa in its process in specific eras or time, Al-ashaari school could help more in the contemporary Dawa among non-Muslims in the world; because of its characteristics and methodologies that are more appropriate and appealing to contemporary audience of Dawa.

Keywords: Islamic thought, Al-ashaari, Islamic creed, contemporary Dawa.

* Qatar University, Qatar. Received on 15/6/2016 and Accepted for Publication on 25/11/2016.